وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية: الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

محاضرات في مقياس:

مدخل إلى الأدب المقارن

المستوى: السنة الثانية ليسانس / دراسات لغوية

الأستاذة: أسماء غجاتي

السنة الجامعية 2023/2022

المحاضرة 01:

الأدب المقارن

المفهوم والنشأة والتطور

النشأة والتطور:

ظهرت الدعوة إلى الاهتمام بآداب الغير منذ أقدم العصور الأدبية وانتشرت المقارنة بين الآداب ومعرفة قوة تأثيرها قبل أن يصبح الأدب المقارن علما قائما بذاته له مناهجه وقواعده.

وإن أصل تلك الدعوة عاطفية إنسانية متفتحة يهدف أصحابها إلى التقارب بين الشعوب عبر روابط ثقافية وفكرية عميقة تتجاوز القوميات والتعصب العرقي.

فعندما اتجه الرومان إلى اليونان سنة 146ق.م لم تكن لهم تقاليد أدبية عريقة مثلما كان لليونايين فرأى مثقفوهم ضرورة الاطلاع على الأدب اليوناني ومحاكاته قصد إثراء الأدب اللاتيني دون طمس لشخصيته بتقليد سلبي غير مقيد، وقد ألح (هوراس) على هذه الدعوة في كتابه " فن الشعر":

"اتبعوا أمثلة الإغريق، واعكفوا على دراستها ليلا، واعكفوا على دراستها نهارا".

أما كنتيليان الروماني فقد ضبط قواعد المحاكاة إذ رأى بأنها ضرورة وأنها عمل عسير لا تتناول التعابير اللغوية بل تقتصر على جوهر المادة الأدبية، كما دعا إلى اختيار الأدباء الذين يعتبرون نماذج وقدوة للكاتب والذين تفيد محاكاتهم إلى ضرورة الابتكار لبذل الجهد لتجاوزهم.

وقد لقيت هذه الدعوة صدى واسعا لدى الأدباء الرومان فأنتجت أدبا لاتينيا ثريا دفع العديد من النقاد إلى دراسته ومقارنته بأصوله اليونانية وذلك بصور تلقائية(ساذجة) خاضعة لقواعد مضبوطة.

وفي مرحلة العصور الوسطى (من 395 إلى 1453م) وحدت الكنيسة بين الآداب الأوربية وتغلغلت الروح المسيحية في مختلف الآثار الأدبية، كما وحّدت اللغة اللاتينية بينها،

فكثر التبادل الثقافي بين الشعوب الأوربية التي تأثر بعضها ببعض، فصار الجنس الأدبي نفسه يظهر في قطر وسرعان ما ينتشر في بقية الأقطار مثلما وقع لأدب الفروسية الذي تبنته كثير من الأقطار الأوربية، بحكم ظروفها الاجتماعية والاقتصادية....المتشابهة.

ورغم كل هذه العوامل المتظافرة لم تظهر دراسات مقارنة في تلك الفترة لبيان هذه التأثيرات المتبادلة التي وجدت اليوم من يهتم بها ويبرز أهميتها.

وإذا انتقلنا إلى النهضة الأوربية فنجد أنها ظهرت في مختلف أقطار أوربا في الفترة نفسها تقريبا(القرن 15م_القرن16م)، حيث لفتت الثقافة العربية الإسلامية انتباهها لأهمية الفلسفة اليونانية، فتوجه مفكروها إلى الآداب القديمة اليونانية واللاتينية وذلك بطبع النصوص وترجمتها والتعليق عليها.

وعادت في هذا العصر من جديد نظرية المحاكاة(محاكاة اليونان والرومان) لكن مع التركيز على القيم الإنسانية الواردة والثقافة اليونانية والرومانية وخاصة الشعر والمسرح، أمّا المعاني والأساطير(الأفكار الماورائية) غير المنسجمة مع الديانة المسيحية لم يولي إليها المفكرون أهمية.

وقد برز الشاعر والناقد الفرنسي "دورا"، الذي تبنى أهمية محاكاة التراث القديم وما يتضمنه من آثار أصلية، مثل: محاكاة "شيشرون" الروماني في خطابته لخطيب اليونان"ديموستين"، وتأثر فرجيل الروماني بشاعر اليونان هوميروس....

واعتبرت دراسات "دورا" من أقدم ما عرف من الدراسات الأدبية المقارنة المثمرة و إن كانت بدائية في منهجها(وهو ما ذهب إليه محمد غنيمي هلال).

كما برز أيضا الناقد والشاعر الفرنسي" دي بلي Du Blay" الذي يعتقد أنّ الأدب الفرنسي لا يمكنه بلوغ أعلى الدرجات التي وصل إليها أدب اليونان والرومان دون محاكاة تدل على هضم.

وقد لقيت هذه الدعوة صدى كبيرا فنسج الشعراء الفرنسيون على منوال الشعراء اليونانيين والرومانيين وتأثروا بهم شديد التأثر.

ولم ينتج عن كل هذا دراسات مقارنة ذات بال لكنه مهّد إلى توثيق الصلة بين الآداب الأوربية في العصر الكلاسيكي حيث اعتبر الآداب القديمة مثالا يحتذى به....فضبط نقاد الأدب في القرن 17م بالخصوص قوانين مستوحاة من كتاب "فن الشعر" لأرسطو، وظهرت مسرحيات كلاسيكية متأثرة بالمسرح اليوناني وقوانينه نتجت عنها دراسات مقارنة تبين مواطن التأثر، فنشرت" مدام دي سكوديري M^e.De Scudéry" ،بحثا تبين فيه ما اخذه الشاعر"كورناي" في مسرحيته "Le cide /السيد" عن الأدب الأجنبي ،لكنّها تبقى محاولات تلقائية لم تعرض الصلات التاريخية ولم تفكر في تحليلها فهي مجرد حكم على كاتب.

ولذلك كان القرن 19م هو الذي يعتبر البداية الحقيقة لظهور الأدب المقارن إذ تظافرت مجموعة من العوامل الموضوعية يسرت لذلك أهمها: ظهور الحركة الرومانسية والنهضة العلمية.

أ-<u>الحركة الرومانسية</u>:

كانت الرومانسية رد فعل للنزعة الكلاسيكية المتمسكة بقواعد الأدب القديم والقيم الأخلاقية الصارمة فتحررت الرومانسية من تلك القواعد وبالخصوص قاعدة الوحدات الثلاث(المكان،الزمان، الحدث)، وتجاوز الحدود الفاصلة بين الأنواع الأدبية فمزجت في الدراما مثلا بين المأساة (التراجيديا) والملهاة(الكوميديا).

وقد ركزت الحركة الرومانسية على العاطفة الإنسانية أكثر من تركيزها على العقل ودعت إلى التمرد على القيم وإلى التمسك بالحرية الفردية فظهرت الحركة على شكل نزعة برجوازية ثائرة على النزعة الأرستقراطية الظاهرة في الاتجاه الكلاسيكي الذي كان ينشد الحقيقة المطلقة في حين كان الرومانسيون يهتمون بالجمال (جمال النفس).

ومن هنا جاء الاختلاف في غاية الأدب ففي حين يراها الكلاسيكيون أخلاقية إصلاحية متمسكة بسلطة الملوكية المطلقة وبسلطة الكنيسة ويكتبون لنخبة أرستقراطية

يعيشون في أكنافها، يراها الرومانسيون في خدمة العلائق الاجتماعية وحقوق الفرد وإفساح المجال للطبقة الوسطى في الحكم.

وصارت مهمة النقد تتجاوز قياس مدى التزام الأديب بالقواعد الكلاسيكية إلى تفسير الأثر الأدبي وتجربة صاحبه الأدبية ومعرفة العوامل التي أثرت فيه فكان ذلك الاهتمام دفعا للأدب المقارن، وقد تميز عالمين أثرا في نشأة هذا العلم ويعتبران امتداد للحركة الرومانسية هما:

مدام دى ستايل M^e DeStael (1766م-1817م)، وسانت بيف Sainte Beuve(1804م-1869م).

فالأولى: تأثرت بالأدب الألماني وأخذت تنشره في فرنسا حيث كونت ناديا ثقافيا في منفاها بجنيف فكان ذلك النادي ملتقا لكبار الأدباء في القرن 19م وكان منهجها في التحليل يقوم على مؤثرات البيئة (ربط الأدب بالمظاهر الاجتماعي الثقافية الأجنبية)، كما كانت تلجأ إلى ضرب الأمثال بالآداب الأخرى، وإلى تحليل بعض مظاهرها، والإشارة إلى وجود التشابه بينها(تعريفها بالأدب الألماني لم يخل من مقارنات بينه وبين الأدب الفرنسي)،مع الإشارة إلى نشأة الأجناس الأدبية وأسسها الفنية في الأمم الأخرى، ومن هنا جاء دورها في تركيز بعض أسس الأدب المقارن ولكن اهتمام بالعلاقات بين الآداب وتأثيراتها المتبادلة.

أما الثاني: سانت بيف فقد ركز على علاقة الأدب بمؤلفه وأخذ يبحث في عناصر تكوين الأدب الكاتب الخارجية(الأجنبية) عن أدب قومه وهو يرى وظيفة النقد الأدبي في النفاذ إلى ذات المؤلف، لتستشف روحه من وراء عباراته، ويفهمه قراؤه، وينصح بموازنة النص الأدبي بنظائره في داخل نطاق الأدب الفرنسي نفسه لتتضح خصائصه، وهذا هو جوهر الأدب المقارن.

ب-<u>النهضة العلمية</u>:

شهد النصف الثاني من القرن 19م دفعا كبيرا للاختراعات العلمية، واتجه البحث إلى تقصي الأشياء، وعللها و إلى الاهتمام بالواقع البشري عوض التركيز على الأحلام والصور

المثالية، وبذلك حلت الواقعية محل الرومانسية وأخذ الكتاب يدافعون عن حقوق العمال ويحللون أوضاعهم المختلفة، وظهرت في هذا العصر نظرية داروين في نشوء وارتقاء الأجناس....وظهرت معها نظريات علمية كثيرة إلا أن هذه الأخيرة هي القريبة من المفهوم العام للأدب المقارن كونه يبحث عن أصل الأنواع الأدبية والمصادر الأولى التي استقى منها الأديب مادته حتى تشكلت خلالها مادة معينة .

فنتج عن ذلك اتجاه عام نحو تفسير الأشياء تفسيرا علميا والبحث في أصولها وأشباهها وتصنيفاتها، فتعددت العلوم التي سعت إلى ممارسة التحليل المقارن بين الأصناف والأنواع مثل: (علم التشريح المقارن) و(علم الأساطير المقارن) و(المنهج المقارن للغات السامية) و(النحو المقارن للغات أوربا اللاتينية) .

وهناك ثلاثة أعلام في فرنسا تأثروا بهذا الاتجاه العلمي العام وكان لهم الفضل في المساهمة الجادة لتأسيس الأدب المقارن وهم :

*هيبوليت تين Hippolyte Taine (1828-1863م): كان يؤمن بتأثير البيئة والثقافة في نتاج الفرد ويدعو إلى معرفة مختلف الآداب والخروج عن حدود الأدب القومي، غير أن دراساته كانت نظرية أكثر منها تطبيقية.

*جاستون باري Gaston Paris (1839-1903م): اهتم بالخرافات الشعبية والأساطير فرأى أنها تتأثر بثقافات مختلف الشعوب، فبين أن الثقافة الفارسية مثلا انتقلت عبر الأدب العربي إلى الأدب الفرنسي إثر التلاقي الذي وقع بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية [فالأدب عنده ينشأ فطريا قوميا، ولكنه يتعقد وينمو اعتمادا على ما يرد إليه من موارد خارجية على نطاق الأدب القومي، ليمثلها ذلك الأدب ويطبعها بطابعه ويكملها ويكمل بها].

*فرديناند برونتيير Ferdinand Brunetière (1849-1906م): تأثر بنظرية داروين في النشوء والارتقاء، ورأى أن الأجناس الأدبية تنشأ كالأجناس الطبيعية وتتطور ويتوالد بعضها من بعض، وبذلك تكون المسرحية مثلا متولدة عن الملحمة والقصة من الحكاية الشعبية، ومن هنا جاءت العناية بدراسة الآداب الأجنبية [أي أنه أراد مقارنة تطور الأدب الفرنسي

بتطور الآداب الغربية الأخرى ومتابعة تطور الأجناس الأدبية، وفهم كيف تلقى الأدب الفرنسي التأثيرات الخارجية] .

فالملاحظة إذن أن مادة هذا العلم سابقة لتنظيره وأن الفرنسيين لعبوا دورا هاما وأساسيا في نشأته، إلا أن دراساتهم يغلب عليها الطابع التنظيري والعرض المجرد للآداب والعصور، ويمكن اعتبار هذا العلم قد اكتمل على يد الباحث الفرنسي جوزيف تكست J.Texte في أواخر القرن 19 م فهو يعد بحق أب الأدب المقارن .

إذ درس بصفة تطبيقية العلاقات بين مختلف الآداب الأوربية في كتابه " دراسات في الأدب الأوربي"، وتبعه عدد كبير من الباحثين في فرنسا وإيطاليا وأمريكا والعالم العربي، وطوروا العلم وطبقوا قواعده وأثروه بنظريات جديدة .

المحاضرة 02

أدوات البحث في الأدب المقارن:

إن مهمة تتبع ومراقبة التبادلات العالمية بين الآداب ليس بالأمر الهين والبسيط ولذلك وجب على الباحث في الأدب المقارن أن يتسلح بثقافة واسعة ومنهجية دقيقة تهيآنه للبحث في تاريخ الصلات الأدبية، وملاحظة ما قد يتسرب عبر الحدود اللغوية من أجناس ومواضيع وأفكار وبنيات جمالية وفنية لصالح هذا الأدب أو ذاك، وهذا ما يجعل الباحث في الأدب المقارن يلجأ إلى أدوات معرفية تساعده على إنجاز عمله العلمي في ظروف جيدة ومن هذه الأدوات أو العدة كما يسميها(بول فنتيغم):

1. أن يكون الباحث في الأدب المقارن متحكما في طرق البحث إذ عليه اختيار اتجاها معينا وطريقة ناجعة تعتمد على استعمال البطاقات والاستقصاء في البحث والتحلي بالصبر وطرح الفرضيات وتدعيم الاستنتاجات بالحجج والابتعاد قدر المستطاع عن الأحكام المسبقة والمطلقة والتقريبية.
2. أن يكون الباحث في الأدب المقارن متمكنا من الثقافة التاريخية حتى تمكنه من وضع النتاج الأدبي المدروس محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه .
3. أن يكون الباحث في الأدب المقارن على معرفة بالكثير من اللغات لتساعده على المقارنة (غير أن المعرفة باللغات عند المقارنة تختلف عن معرفة اللساني باللغة، إذ يكفي المقارن قراءة نصوص الآداب المتعلقة بأبحاثه في لغاتها الأصلية).

   أما اللجوء إلى الترجمة فهو لا يمكن الاستغناء عنه بسبب محدودية قدرات الإنسان أمام تعدد لغات العالم، ولا أظن أن هناك من ينكر فائدة الترجمة في التعريف بالآداب العالمية وتقريب آداب الأمم بعضها ببعض.
4. أن يكون ملما إلماما كافيا بالآداب الأجنبية في كل عصورها أو على الأقل في العصر الذي يريد البحث فيه حتى يتمكن من تحديد أنواع العلائق القائمة بين أدبين أو أكثر .

5. أن يكون على دراية بالمصادر العامة التي تساعده للوقوف على ما كتب في الحاضر والماضي حول الموضوع الذي كتب فيه .

فمثل هذه المصادر تبصره بالقضايا التي أثيرت حول موضوعه ليستفيد منها ويعمل على تجاوزها لاستجلاء ما خفي منها.

المحاضرة 03:

مجالات البحث في الأدب المقارن

إن موضوع الأدب المقارن _عامة_ هو تبادل الاستعارات الأدبية بين آداب اللغات في أوسع ما تدل عليه استعارات من أجناس أدبية وصور فنية وموضوعات وأساطير ونماذج لأشخاص بشرية....

وقد ينظر في كل ذلك إلى وسائل عبور هذه الاستعارات من أدب ولغة إلى أدب لغة أخرى ومن بلد إلى بلد، وقد ينظر إلى المسائل المتبادلة نفسها، وكيف تغيرت، فزيد فيها أو نقص منها حين انتقلت من اللغة التي أثرت إلى اللغة التي تأثرت. ففي الحالة الأولى تدرس عوامل الانتقال وملابساته ،وفي الحالة الثانية تدرس المسائل نفسها من الموضوعات والأجناس الأدبية.

أولا: عوامل انتقال الأدب من لغة إلى لغة

لا شك أن هناك عوامل معينة لانتقال أدب لغة إلى أدب لغة أخرى ومن هذه العوامل:

1/ الكتب: للكتب تأثير كبير في إثبات الصلات الأدبية وتبادل التأثير والتأثر بين مختلف اللغات، فهي التي تلقي ضوءا إيجابيا أو سلبيا على علاقات بلد ما بمؤلف أو بمجتمع أو بإنتاج أدبي في بلد آخر.

والأدب المقارن يحاول إثبات صلة التأثير والتأثر و وسائط التأثير, ويستعان في ذلك بما أدلى به المؤلف من تصريحات حول ثقافته وحول اعترافاته بالتأثر بكاتب ما أو ثقافة بلد ما.

وقد يكتب المؤلف كتبه بلغة أجنبية فيصبح التأثر مؤكدا، فمثلا الشاعر الإنجليزي "أوسكار وايلد Oscar Wilde" الذي ألف باللغة الفرنسية قصة بعنوان "سالومية Salomé"، وكفولتير في رسائله الانجليزية.

ويدخل في هذا الباب أيضا دراسة الترجمة من لغة إلى لغة ولم راجت في الأمم التي ترجمت إليها، ولكي يستطيع الحكم على الترجمة لابد من العودة إلى الأصل، ولابد أيضا في

هذا المجال من مراجعة كتب النقد الأساسية والمجلات المتخصصة القديمة والحديثة . فمثلا يجب العودة إلى المجلات القديمة والتفتيش عن القصص المترجمة للكاتب الروسي العالمي "ماكسيم غوركي" لكي تكشف أثر الواقعية على الأدب العربي في بداياتها الأولى، ثم الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي في الخمسينيات .

2/ المؤلف: أحيانا يهتم النقاد بالكتب وبأفكار مطروحة على الورق الجامد دون دراسة الإنسان الذي ألف هذا العمل، فمثلا في دراستنا لـ "شاتو بريان" وتأثره بإنجلترا يجب الاهتمام بدراسة حياته، وعندما نقرأ كتابه "الرحلة من باريس إلى القدس""، نقوم بدراسة الخلفية الدينية _المسيحية_ والسياسية.

الشيء نفسه يجب اتباعه فيما يتعلق بكتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع الذي يعتبر صلة بين الأدب الفارسي والأدب العربي فيجب أن ندرس حياته الشخصية وأسباب ميوله للثقافة الفارسية، وندرس الزيارات التي قام بها للبلدان الأخرى، فذلك يساعدنا على معرفة كيفية انتقال هذا الكتاب من العربية إلى الآداب الأخرى .

ثانيا: دراسة الأجناس الأدبية

والمراد بالأجناس الأدبية هي تلك القوالب الفنية الخاصة التي تفرض طريقة تعبير ما على المؤلف.

ففي مجال الأدب المقارن ندرس مثلا: لماذا انتشرت القصة التاريخية في كل أوربا في أوائل القرن 19م؟ أي بحث عن الأصول والانتماءات، أو ندرس كيف نشأت القصة القصيرة كجنس أدبي أو المسرحية، ثم كيف نشأت هذه الأجناس الأدبية في الأدب العربي الحديث مثلا.

وعند البحث يجب مراعاة هذه الملاحظات:

أ. أن يحدد الباحث في الأدب المقارن الجنس الأدبي(القصة التاريخية، المسرحية الكلاسيكية، الشعر الغنائي..) .

وبعد تحديد الجنس الأدبي يمكن دراسة الأساليب الفنية، كأن ندرس الوقوف على الأطلال في الأدبين العربي والفارسي.

ب. يجب على الباحث أن يحدد مجال التأثير والتأثر ويكون هذا انطلاقا من تصريحات الكاتب إن وجدت أو أوجه التشابه بين النصين، وهنا نعني التشابه التأثري، وليس مجرد تشابه في الموضوع بين أدبين لم تتم بينهما صلة.

ج. أن يحدد مدى تأثر الكاتب بالجنس الأدبي المدروس وعوامل هذا التأثر، فيبين ما إذا كان الكاتب خاضعا لمذهب أدبي ما أم لا، وهنا يجب دراسة حياة الكاتب، إذ ربما تساعدنا بعض تفصيلاتها في إضاءة النص.

ثالثا: دراسة النماذج الأدبية

يهتم الكثير من الكتاب بدراسة النماذج البشرية الأدبية وخصوصا الألمان، فمثلا دراسة شخصية أو موضوع "كليو باترا" في الأدب الانجليزي والفرنسي والعربي.

ولهذه البحوث أهمية في معرفة الشعوب ونفسيتها، وفي دراسة الكاتب الذي يتخذ من هذه الموضوعات طريقا للتصريح بآرائه وفلسفته .

رابعا: دراسة تأثير كاتب ما في أدب أمة أخرى

ينتشر هذا النوع من الدراسة كثيرا لدى الفرنسيين وذلك لسهولته.

ولأجل هذه الدراسة يجب مراعاة الأسس التالية:

أ. تحديد نقطة افتراضية (نقطة البدء) في مجال التأثير في مؤلفات كاتب ما مثلا: تأثير مسرحيات وليام شكسبير في الأدب الفرنسي، أو تأثير مسرحية واحدة فيه مثلا: تأثير مسرحية (هاملت) في الآداب الأخرى .

ب. تحديد الوسط المتأثر سواء كان بلدا أو مجموعة مؤلفين أو مؤلف مثلا: تأثير الكاتب الفرنسي (جي دي موباسان) في (محمود تيمور).

ج. التمييز بين حظ الكاتب في انتشار مؤلفاته وبين حظه في تأثر الآخرين به، فهناك بعض الأدباء يؤثرون على أدباء بلد آخر ولكن دون أن تكون لهم شهرة أدبية كافية في بلدهم.

<u>خامسا</u>: دراسة مصادر الكاتب

فمن ذلك تأثر الكاتب بمظاهر وعادات رآها في بلدان أخرى وهنا ينبغي شرح مصادر الكاتب في أصولها ونسبة تأثره بها.

<u>سادسا</u>: دراسة التيارات الفكرية

كأن ندرس الفكر الوجودي كتيار فلسفي وتأثيره على الأدب العربي في الستينيات أو تأثير الفكر الماركسي على الواقعية الاشتراكية العربية المتمثلة في أدب الخمسينيات بشكل حرفي، ثم ذيوع بعض المبادئ الفنية لهذا الفكر في الستينيات بشكل أكثر تطورا.

<u>سابعا</u>: دراسة بلد ما كما يصوره أدب أمة أخرى (الصورولوجية)

لكل شعب من الشعوب رأيه في الشعوب الأخرى، وينعكس هذا الرأي في أدبه الذي يمثل سجل شعور الأمة تجاه غيرها من الأمم، ولمعرفة هذا لابد من دراسة أدب الرحلات والقصص والمسرحيات، و ما بها من أشخاص وألوان مجلوبة من أدب خارج الأدب القومي، و لابد هنا أن يشتمل البحث على نقطتين:

أ. دراسة بلد ما كما يصوره أدب آخر:

مثل: صورة انجلترا في الأدب الفرنسي في القرن 19م، أو صورة إسبانيا في الأدب العربي منذ الفتح الإسلامي .

ويجب في مثل هذه الدراسات التطرق إلى تاريخ الأدباء الذين رحلوا إلى ذلك البلد المراد دراسة صورته، وكيف صور هؤلاء الأدباء أماكن وشعوب ذلك البلد...

ب. دراسة بلد ما كما يصوره مؤلف من أمة أخرى:

كأن ندرس صورة الجزائر عند (ألبير كامي)، أو صورة الجزائر عند الرحالة الألمان، أو صورة إسبانيا في شعر أحمد شوقي... وفي هذه الحالة ندرس حياة الكاتب، ومدى صلته بالبلد المقصود، ثم كيف استقى معلوماته أو كيف رأى البلد، وإلى أي حد كانت الصورة صادقة أو كاملة .

محاضرة: 04

مدارس الأدب المقارن

الأدب المقارن كما سبق القول فرع من فروع العلم يدرس من خلاله الأدب القومي من حيث تأثره أو تأثيره في آداب قومية أخرى.

ظهر أول مرة في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر، وبهذا التغيير سنة 1828 على يد (جون جاك أمبير) الذي أعطى محاضراته في جامعتي مرسيليا وباريس وجعل عنوانها " الأدب المقارن La littérature comparée" ، وفي الفترة نفسها كتب (فيلما) أول كتاب منهجي في الأدب المقارن عن: "أدب القرن الثامن عشر" .

وقد درس فيه أدب هذا القرن في فرنسا وانجلترا وألمانيا، ومنذ هذا التاريخ وأبحاث هذا الفرع تتسع لتشمل كثيرا من البلاد، وفروعه تغطي كثيرا من مجالات الالتقاء الفكري والفني بين الشعوب، ومناهج البحث فيه تتعدد، وأشهر مدارس الأدب المقارن مدرستان: المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية.

1/ المدرسة الفرنسية:

كان للفرنسيين قصب السبق في مجال الأدب المقارن، إذ استطاعوا أن يؤسسوا ما صار يعرف بـ "المدرسة الفرنسية" التي تعنى بالعامل التاريخي، واختلاف اللغة بين النصوص المقارنة.

ومن أقطابها: فانتيغم، فرنسوا جويار، رينيه إيتيامبل، ومما لاشك فيه أن الفضاء الجغرافي لفرنسا ساعدها أن تكون ملتقى تيارات بالإضافة إلى توسع مستعمراتها التي أفرزت بدورها الكثير من ردود الفعل وهاتان الزاويتان(الفضاء والتاريخ) خدمتا المدرسة الفرنسية خدمة كبيرة.

ويظهر أن فرنسا كانت مهيأة أكثر من غيرها لاستقبال هذا الدرس المقارن في إطار علاقات الأسباب بالمسببات التاريخية أي أن علاقات القوى بينها وبين الآداب لقيت دورا أساسيا في بلورة شكل مدرسي يستلهم مقوماته داخل مفهوم التميز للأمجاد التاريخية، وفي

هذه الحالة يظهر من المقبول أن يقوم الأدب المقارن ولمدة طويلة على أساس هذا المفهوم الضيق المتعلق بدراسة علاقات الأسباب بالمسببات بين الآداب الوطنية إلى جانب انحصاره في دراسة آلية للمصادر والتأثيرات والصدى والشهرة أو الانتقال المخصص لكاتب أو عمل ما.

ومن هنا كانت جل الأبحاث المقارنة على الرغم من كوسموغوليتها (موسوعيتها) تأخذ اعتبارات وطنية وقومية في أعمال المقارنين الفرنسيين إلى أن تتحول مثل هذه الدراسات إلى مجرد ملحقات تابعة للأدب الوطني وخير دليل على ذلك كتاب فيليب فانتيغم حول "التأثيرات الأجنبية في الأدب الفرنسي" .

- **أزمة الأدب المقارن:**

على أن هذا الاتجاه التاريخي الذي ساد وحده نحو قرن من الزمان بدأ منذ بداية الخمسينيات من القرن الماضي يجد معارضة هنا أو هناك ونقدا يوجه إلى فرع أو إلى آخر من فروعه، وكانت موجة المعارضة قد بدأت في الجانب الأمريكي فيما عرف باسم "ازمة الأدب المقارن"، وقد شكلت هذه الموجة اتجاها منهجيا ثانيا هو الاتجاه الأمريكي حيث نجد من الملاحظات الرئيسية التي وجهت إلى الاتجاه الفرنسي هو اتخاذه للأدب الفرنسي محورا تدور حوله الآداب الأخرى تأثيرا أو تأثرا، وهذه النزعة المحورية المحلية (المركزية الأوربية الاستعمارية) التي قدمت آداب العالم جميعا كما لو كانت منبثقة من بحر الآداب الأوربية أو منصبة فيه، ولم تعط آداب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية حقها من البحث والاستقصاء .

وقد هاجم إيتيامبل (كبير دراسي الأدب المقارن في فرنسا) زميله فرانسوا غويار (أصدر عام 1951 كتابه المعنون "الأدب المقارن" الذي يعد تلخيصا جيدا لمجالات ومناهج البحث في هذا الفرع) واتهمه بالتعصب الإقليمي والقومي وتركيز كل أضواء التأثير على الأدب الفرنسي، والذي لا يتفق مع الطابع العالمي العام الذي ينبغي أن يتسم به فرع مثل الأدب المقارن .

وطالب المقارنين أن يتجاوزوا كل أشكال الشوفينية أو التعصب الوطني والإقليمي، وأن يعترفوا أن بالتبادلات الجارية على مستوى الحضارة الإنسانية ككل دون تركيز على لغة واحدة معينة أو بلد واحد معين .

وبالنسبة للملاحظة الثانية(الاعتراض الثاني) التي وجهت إلى صلب المنهج التاريخي هو الاعتراض الذي وجهه الكاتب الأمريكي (رينيه ويليك Rene Wellek) (وهو أبرز ممثلي الاتجاه النقدي الذي يعرف "بالنقد الجديد") ويتلخص في اهتمامه الكبير بالعلاقات التاريخية بين أدب وآخر وهو يفعل ذلك باعتباره جزءا من "تاريخ الأدب"، وهذا الاعتبار يدفع بمتتبعيه إلى الاهتمام بعنصر "التاريخ" أكثر من اهتمامهم بعنصر "الأدب"، ويعتبر على هذا الأساس كل إنتاج تم نتيجة التقاء وسائط محدودة داخلا في الأدب المقارن، وكل إنتاج لم تتبين فيه هذه الواسطة حتى وإن تبينت علامات المشابهة خارجا عن نطاق الأدب المقارن،[أي: من مبادئ المنهج التاريخي الفرنسي أن كل أدب ينتج عن اتصال بين أدبين أو شعبين فهو يدخل ضمن دراسات الأدب المقارن، وكل أدب لا تتضح فيه وسائل الاتصال بين أدبين أو شعبين فهو خارج عن دراسة الأدب المقارن، وهذا يعتبر تعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية بمنأى عن أدبيتها، و لا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص]

المحاضرة: 05

2/ المدرسة الأمريكية:

لقد دفعت كل هذه الاعتراضات أصحاب المنهج النقدي (الاتجاه الأمريكي) إلى التشكل لا في مواجهة المنهج التاريخي (الفرنسي) ولكن في مجاورته فالرؤية الأمريكية تربط بين المنهجين التاريخي والنقدي باعتبارهما عاملين ضروريين في الدراسة المقارنة {وبذلك ليس بالضرورة أن ينظر إلى كلمة (أزمة) بنظرة سلبية ذلك أنها أفرزت رؤية جديدة لمنهج الدراسة المقارنة تستدعي توجيه كل الجهود لخدمته}، فزعماء المنهج النقدي أمثال (رينيه ويليك) يفرقون بين (دراسة تاريخ الآداب دراسة مقارنة) وبين (الدراسة المقارنة للآداب) ،ويرون أن العمل الأدبي بنية ذات طبقات من الرموز أو المعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف ولذا فهي مستقلة أيضا عن المؤثرات التي قد تكون شكلت ذهنه، والدراسة المقارنة للآداب بدلا من أن تحدد نفسها بدراسة العلاقات، ينبغي أن تهتم بدراسة البنى والقيم الجمالية، حيث يمكن أن تلعب دورا إيجابيا في تطوير هذه القيم ذاتها بدلا من أن يقتصر دورها على الرصد والملاحظة، أي أن المنهج النقدي ساعد على توسيع دائرة البحث في الأدب المقارن وعلى إعطاء مزيد من الاهتمام للعناصر الأدبية في النص. وكما دعت إلى انفتاح الدرس المقارن ليكون دراسة للعلاقات بين الآداب ومجالات المعرفة (فلسفة، تاريخ، سياسة، ديانة...) والفنون (رسم، نحت، رقص، معمار، موسيقى..)، لأنها يمكن أن تعطي مساعدة كبيرة في فهم الأعمال الأدبية.

وإن الخلفية الحقيقية لذلك الصدام الذي جرى بين الاتجاه التاريخي (الفرنسي) و الاتجاه النقدي (الأمريكي) ترجع إلى التحول الجذري في دراسة النصوص الأدبية من الدراسة الخارجية إلى الدراسة الداخلية، هذا التحول الذي بداه "الشكلانيون الروس" وواصله "النقد الجديد" والبنيوية والاتجاهات ما بعد البنيوية، يعتبر منعطفا حادا في تاريخ الفكر النقدي في العالم، إذ نقل كل اهتمام الدرس النقدي من العلاقات الخارجية للعمل الأدبي (أي علاقاته

بشخصية الأديب وسيرته، والبيئة الاجتماعية...) إلى العلاقات الداخلية للعمل الأدبي متمثلة في بنيته الفنية والفكرية والجمالية.

أي أنه يول جل اهتمامه لأدبية الأدب (تلك العناصر التي تجعل منه أدبا) .

وبالتالي فدراسات التأثير والتأثر لا تقربنا من فهم جوهر النصوص الأدبية، بقدر ما تبعدنا عنه، وتدخلنا في متاهات المؤثرات والوسائط والعلاقات الخارجية فَرُفِض المنهج الفرنسي التقليدي في الأدب المقارن، وجاءت الدعوة (رينيه ويليك) إلى منهج يتعامل مع جوهر الأدب وهو منهج نقدي (المدرسة الأمريكية) يدرس الظاهرة الأدبية بصورة تتجاوز الحدود القومية لتلك الظواهر الأدبية (من أجناس وتيارات أدبية....).

تقوم المدرسة الأمريكية على مبدأين أساسيين يبرزان خصائصها:

أ-**المبدأ الأخلاقي:** يبرز موقف أمة كبيرة ومتفتحة على العالم بإعطاء لكل ثقافة أجنبية ما تستحقه من عناية وعطف ديمقراطي وهي على وعي في الوقت نفسه بجذورها الغربية.

ب- **المبدأ الثقافي:**هو الذي يسمح للأمريكيين بإلقاء نظرات شاملة منذ العصور القديمة حتى القرن العشرين، والمحافظة على القيم الجمالية والإنسانية للأدب، والمبدأ الأخلاقي يقوم على اعتبارات تاريخية تحيل على حداثة الحضارة الأمريكية التي تكون مزيجا من الجنسيات والثقافات، وتستدعي إيجاد انفتاحات لا تتخلص نهائيا من أصولها الغربية.

أما المبدأ الثقافي فلم يستدع البحث فيه عن هوية ثقافية وجدت إطارها المنهجي والمعرفي يدور في حلقة القرن العشرين مستخلصة من وضعية وتاريخية القرن 19 الذي سيطر على حقول الدراسات الأوربية لمدة طويلة.

ومن المبدأين الأخلاقي والثقافي تتكون شخصية مقارنة المدرسة الأمريكية التي استفادت من نتائج وإنجازات أوربا دون أن تظل حبيسة رؤيتها _ التي لم ترتبط بالمستعمرات بشكل مباشر كما هو الشأن عليه في أوربا_ و وجدت المدرسة الأمريكية نفسها غير ملزمة بظروف لم تعشها فكان من الطبيعي أن يخضع منظور الدرس المقارن إلى وضعية ثقافية متجددة وذات وسائل إنتاجية ضخمة.

وهذا الوضع الجديد (المنهج الأمريكي) كان وراء تجاوز مواقف ضيقة وإعلان قطائع معرفية ومنهجية مع درس الأدب الأوربي بصفة عامة كما تم توضيح ذلك في الصفحات السابقة .

المحاضرة:06

3/ المدرسة السوسيولوجية (السلافية، الماركسية، الاشتراكية، السوفياتية):

عنيت بآداب الضواحي من جهة، والآداب الشفوية من جهة أخرى، والآداب المهمشة_آداب الأقليات_من جهة ثالثة، وسميت هذه المدرسة بـ "السلافية" نسبة إلى لغات الشعوب الناطقة بها في بلدان المعسكر الاشتراكي، وبالتالي نسبة إلى لغات معظم منظريها، وبـ "الاشتراكية" نسبة إلى النظام السياسي والاقتصادي الذي ساد مجتمعات هذه البلدان، وبـ "الماركسية" نسبة إلى الفلسفة التي تحكم تفكير منظريها في سائر البلدان الاشتراكية، وبـ "السوفياتية" لأن منظريها السوفيات كانوا يؤدون دورا قياديا في مختلف وجوه حياة مجتمعات البلدان الاشتراكية،وبـ "المادية الجدلية" أو "الجدلية المادية" نسبة إلى الفلسفة المادية الجدلية التي تحكم انصار هذه المدرسة ذات الفلسفة الوحيدة المعتمدة من المؤسسة السياسية الحاكمة في مجتمعات تلك البلدان التي أسلمت أمورها جميعا إلى الحزب الواحد الذي يحكم بأمره وهو الحزب الشيوعي أو الاشتراكي في كل منها. تستلهم المدرسة "السلافية" في الدرس المقارن للأدب الفلسفة الماركسية في تدبرها للمشابهات الملاحظة بين الآداب القومية المختلفة، فتردها إلى المشابهات القائمة بين البنى التحتية المنتجة لهذه الآداب .

ذلك أن التشابه في مراحل تطور المجتمعات الذي ينطوي على تشابه فيما بينها في البنى الاقتصادية لابد أن يؤدي، في عرف أتباع هذه المدرسة، إلى تشابه في مكونات البنى الفوقية والتي يشكل الأدب واحدا من أهمها.

فالبنى التحتية المتشابهة تفرز بالضرورة بنى فوقية متشابهة، وهذا التشابه هو سر المتشابهات التي تقع عليها بين الأعمال الأدبية التي تنتمي إلى آداب قومية مختلفة بصرف النظر عن أية علاقة قد تقوم فيها بين هذه الآداب.

والمدرسة "السلافية" تستند في تفسيرها للمشابهات إلى الفهم المادي للتاريخ الإنساني وقوانين تطوره يكتب ""فيكتور مكسيموفيتش جيرمونسكي"، أبرز منظري الدرس المقارن في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا، موضحا هذه المقدمة الأساسية في الدرس المقارن كما

يراه أنصار هذه المدرسة: ""تعد وحدة عملية التطور الاجتماعي التاريخي للبشرية المقدمة الأساسية لعلم الأدب المقارن، وتشترط هذه الوحدة بدورها وحدة التطور الأدبي بوصفه إحدى البنى الأيديولوجية الفوقية.

ومثلما تشف العلاقات الاجتماعية السياسية المشروطة بحالة قوى الإنتاج وعلاقاته عن خصائص متماثلة نمطيا في أقصى أوربا الغربية، وفي آسيا الوسطى في عصر الإقطاع مثلا، ينبغي أن يشف الفن _بوصفه معرفة للواقع في صور_ عن أوجه تشابه مهمة عند مختلف الشعوب في مراحل تطورها المتماثلة .

وليس مصادفة أن تظهر تيارات إيديولوجية واتجاهات أدبية مثل الكلاسيكية والنهضوية البورجوازية والرومانسية والواقعية الانتقادية والطبيعية والرمزية... في البلاد الأوروبية كأطوار متعاقبة ضمن وحدة عملية التطور التاريخي والتاريخ الأدبي، دون أن ينفي قانون التعاقب هذا وجود خصائص محلية معينة تميز التطور التاريخي القومي لكل بلد على حدة وذلك على أرضية الحركة التاريخية الشاملة" .

وبعبارة أخرى إن التأثير الخارجي، الذي ينسب إليه أنصار المدرسة الفرنسية عادة الدور الأكبر في المشابهات بين الآداب القومية المختلفة، لم تعد له تلك الأهمية بالنسبة لأنصار المدرسة "السلافية"، بل إن هذا الدور غدا محكوما في نظرهم بتطور المجتمع المنتج للأدب.

ويكتب "جيرمونسكي" مرة ثانية موضحا الشرط الاجتماعي الذي يحكم التأثير الخارجي فيقول: "لا يمكن لأي تأثير ذي أهمية أن يكون مصادفة أو دفعة آلية من خارج ، أو واقعة ميدانية في سيرة خاصة بأحد الأدباء، أو في سير عدد منهم، أو نتيجة تعارف بالمصادفة مع كتاب جديد، أو انجرافا وراء أنموذجات أو تيارات أدبية تمثل السائد الأدبي .

فالأدب مثله مثل الأشكال الأيديولوجية الأخرى يتشكل قبل كل شيء، على أساس تجربة اجتماعية محددة بوصفه انعكاسا للواقع الاجتماعي وأداة لإعادة بنائه .

لذا فإن إمكانية التأثير ذاتها مشروطة في بعض جوانبها بالقوانين الطبيعية لتطور مجتمع معين و أدب معين، على اعتبار الأدب أيديولوجيا اجتماعية تتولد في إطار واقع محدد تاريخيا .

إن أي تأثير هو أمر ممكن تاريخيا، لكنه مشروط اجتماعيا، فلكي يصبح التأثير ممكنا يجب أن تكون ظروف البلد المتأثر أو المستقبل مهيأة، ومشابهة (في الأفكار والأخلاق والموضوعات والصور) للاتجاهات المؤثرة.

ويلخص "جيرمونسكي" وجهة نظر علم الأدب المقارن الماركسي في مسألة التأثير من خلال النقاط التالية:

"يمكن أن يكون التشابه بين الظواهر الأدبية، ولا سيما التشابهات ذات الطابع العام كالتشابه بين الاتجاهات أو الأنواع الأدبية أو المبادئ الجمالية أو التوجهات الأيديولوجية الذي تتكشف عنه آداب مختلفة في وقت واحد قائما على مقدمات اجتماعية تاريخية واحدة في مرحلة واحدة من مراحل التطور أو على التشابه في الواقع الاجتماعي وفي أيديولوجية طبقة اجتماعية في حالة تاريخية معينة، هذا الضرب من التشابه في تطور الآداب لا يقتضي حتما وجود تأثير مباشر، لأن وجود التوجهات المتشابهة في الآداب القومية هو بحد ذاته شرط رئيسي لإمكانية قيام التأثيرات الأدبية الدولية .

- ليس التأثير دفعة آلية من خارج أو دفعة بالمصادفة، وليس واقعة تجريبية في سيرة الحياة الذاتية لكاتب أو فئة من الكتاب، وليس نتيجة لتعارف بالمصادفة أو لولع بأنموذج أدبي دارج أو باتجاه أدبي، إن أي تأثير هو أمر خاضع للقوانين ومشروط اجتماعيا، ويحدد هذه المشروطية التطور الطبيعي القانوني في المجتمع المتأثر وفي أدبه، كما يحددها اتساق الأيديولوجية الاجتماعية مع قوانين السيرورة التاريخية العامة، وبتعبير آخر، كي يصبح التأثير ممكنا لابد من أن تظهر الحاجة إلى الاستيراد الأيديولوجي، و لابد أن يكون لدى أيديولوجي الطبقة الاجتماعية في البلد المستورد توجهات مشابهة إلى حد ما، وبالعودة إلى المثال الذي أثار اهتمامنا سابقا، يمكن القول: إذا كان الاستيراد الثقافي من إنكلترا قد ساعد

على تشكيل نوع أدبي جديد في فرنسا هو دراما البورجوازية الصغيرة أو الرواية العائلية في القرن الثامن عشر، فإن التوجهات نحو تشكيل هذا النوع يفترض أن تكون متوفرة في الأدب الفرنسي نفسه على قاعدة التطور الاجتماعي للبورجوازية الفرنسية وسعيها إلى تقرير مصيرها الأيديولوجي بذاتها .

- إن أي تأثير أدبي مرتبط بتحويل اجتماعي للأنموذج المؤثر، أي: بتكييف الأثر من خصوصيات التطور الاجتماعي ومع الاحتياجات المحلية التي يقتضيها واقع الطبقة الاجتماعية المتأثرة، وتعد مسألة وجوه الاختلاف وشروطها الاجتماعية مسألة لا تقل أهمية عن مسألة التشابه بالنسبة إلى مؤرخ الأدب الذي يدرس حالة ملموسة من حالات التأثير الأدبي".

ومهما كان الأمر فإن على المرء أن يتذكر، في معرض التقويم الإجمالي لتركة المدرسة السلافية، ويذكر بإسهاماتها المهمة التي ربما كان أبرزها:

- الخروج عن الفلسفة الوضعية التي حكمت الطريقة الفرنسية في الدرس المقارن، وحولته إلى بحث تاريخي يقوم على العلاقة السببية، والدلائل الملموسة على الصلات بين الآداب القومية المختلفة التي جمعت بينها مقولة التأثير، واعتماد الفلسفة المادية الجدلية في النظر إلى مختلف الآداب القومية ضمن سياق أوسع من آداب العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، يكتب "جيرمونسكي" عن ضيق أفق علم الأدب البورجوازي الذي انتهى بمقاصد قومية خاطئة وضارة: "إن الدراسة المقارنية للآداب الدولية التي لا تفهم بوصفها منهجا بل بوصفها مجموعة من القضايا الإشكالية، يجب أن تشغل مكانا ملائما في علم الأدب الماركسي، إن دراسة السيرورة الأدبية في عزلتها القومية وانغلاقها كانت توصل علم الأدب البورجوازي دائما إلى أفق إقليمي ضيق ومقاصد قومية خاطئة وضارة، ولذا يجب علينا انطلاقا من الفهم الماركسي للتطور التاريخي أن ندرس الآداب القومية في سياق تطور الأدب العالمي المركب على اعتبار هذه الآداب أجزاء في سيرورة اجتماعية تاريخية واحدة في تطور البشرية مع

الأخذ في الحسبان الخصوصيات القومية لكل أدب من الآداب ومن ثم التفاعلات الأدبية الدولية في سياق قوانينها وشروطها الاجتماعية" .

- مناهضة نزعة المركزية الغربية التي سادت، و لا تزال سائدة في كثير من أوساط الدارسين المقارنين الغربيين، التفكير النظري الغربي والتفكير المنضوي تحت لوائه، والممارسات المقارنية سيادة تامة حتى عهد قريب، ذلك أنه وعلى الرغم من تنوع مناهج الدرس المقارن للأدب في الغرب (الأوربي والأمريكي)، واختلافها فيما بينها في التركيز على هذا العنصر أو ذلك من عملية التفاعل الأدبي بين الأمم والشعوب، فإن ما يجمع ما بينها من جانب، ويميزها من جانب آخر عن غيرها من مناهج الدرس المقارن الأخرى خارج العالم الغربي هو نزعتها الواضحة وضوح الشمس نحو التمركز المسرف حول الذات الغربية .

المحاضرة 07:

المدرسة العربية:

تعتقد أن تسمية مدرسة تتطلب نسقية معينة وخصوصية تكون لها شخصيتها، ولعل هذا ما نجده عند المدرستين الفرنسية والأمريكية وهو ما خلق بينهما انسجاما معينا سرعان ما يتكسر هذا الانسجام مع المدرسة العربية .

وما يدفعنا إلى الاحتفاظ باسم المدرسة العربية بالرغم مما تعكسه هذه التسمية من خلل منهجي، وهو اعتمادنا على الحقل الثقافي والفضاء الجغرافي الذي يمتد فيه الدرس المقارن العربي .

وهذا التحفظ على إعطاء صفة المدرسة كونها لم تحقق إلى الأن استقلالها نهائيا، بل تنحو إلى الترويج للدرس كما لو كان درسا غربيا يجب الدعوة إلى تبنيه عربيا بل ارتباطه باللون القومي العربي، ذلك أنه حقل معرفي لا تتبين له أصول في التراث الأدبي القديم، ولعل الخلل كل الخلل هو ما أصاب الدرس العربي من انبهار بتاريخية المدرسة الفرنسية خاصة، والآداب الغربية عامة .

ومن معوقات استقلال المدرسة العربية ما يلي :

- الخوض في دوامة البحث عن الأدب الشرعي للدرس (يجهد الباحثون العرب انفسهم في تأكيد الأصول العربية للفنون الأدبية الوافدة كالقصة والمسرح) .
- انقطاع أبحاث المقارنين العرب عن التواصل.
- تجاهل المعاصرين الواحد للآخر، والأجيال الأخرى.

وهو الشيء الذي أبقى الدرس المقارن في العالم العربي عند نقطة البدء والانطلاق....وهذا لا يعني إغفال جهود الباحثين في هدا المجال ولنا أن نسميها عندئذ الأدب المقارن في البلاد العربية.

وإذا انتقلنا لتتبع آثاره في الأدب العربي قديما فنجد أنه حقل معرفي فني، ذلك أنه كان للعرب في الماضي اعتداد خاص باللغة والشعر، وإشاحة نسبية عن آداب الأمم

الأخرى، مما أدى إلى أن يكون نشاطهم في حقل التبادل الأدبي أقل من نشاطهم في الحقول المعرفية الأخرى كالعلوم والفلسفة على أن غير العرب تأثروا تأثرا واضحا بالأدب العربي ودرسوه وألفوا على غراره .

والملاحظ أن معظم الأدباء البارزين في عصر النهضة كانوا أكثر انفتاحا في مجال التفاعلات الأدبية، ووضعوا أساسا لنهضة الأدب المقارن في عصرنا .

وكان لرواد النهضة الأدبية كل الأثر في هذا من مثل : أديب إسحاق، أحمد فارس الشدياق، نجيب حداد، إلى جانب سليمان البستاني وروحي الخالدي ...هذين الأخريين الذين وضعا حجر الأساس للبحث التطبيقي في الأدب المقارن على الرغم من عدم إشارتهما للمصطلح بصورة مباشرة .

والبستاني قام بتعريب "الإلياذة" لهوميروس، وأجرى مقارنات جريئة بين الملحمة اليونانية والشعر القصصي العربي، وأكد وجود ملاحم عربية قصيرة تختلف عن الملاحم الإفرنجية الطويلة، وتوصل من هذه المقارنة إلى أحكام شاملة تتعلق بالشعر الجاهلي والشعر اليوناني القديم، كما أشار إلى التشابه بين عبقرية ابن الرومي وعبقرية هوميروس، ومقارنات البستاني تدل على أن ثقافته الأصلية عربية تقليدية وأن ما قرأه من أفكار أدبية غربية ليس أكثر من نوافذ صغيرة للمقارنة.

وعند منتصف القرن 19 م ساد مناخ عام للمقارنة، أسهم فيه كتاب مثل : خليل ثابت، أسعد داغر، نقولا فياض،و يعقوب صروف...

وبالنسبة للأعمال المفردة التي كانت لها علاقة بشكل ما بمجال الدرس المقارن نجد:

-كتاب "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوغو" للكاتب (روحي بن ياسين الخالدي) ، (تم نشره متسلسلا في مجلة "الهلال" بين سنتي 1902_1903)،ثم طبعته دار الهلال سنة 1904، والطبعة الثانية سنة 1912، الطبعة الثالثة سنة 1985.

وهو مؤلف نوعي في الأدب المقارن التطبيقي لا تنقصه سوى التسمية التي تحدد صفته ككتاب في الدرس المقارن، وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية في علم الأدب عند

الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب إبان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى، وما اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصا على يد فكتور هوغو، كما يرد في هذا الكتاب مقارنات ومقابلات ودراسات للتبادلات الأدبية بين العرب والفرنجة ، وترجمات وتعليقات، تدل كلها على أنه كان شديد الالتصاق بالمنهج المقارني .

-سلسلة مقالات لفخري أبو السعود تم نشرها على صفحات "الرسالة" في الأعوام 1935_1937 وقابل فيها بين الأدب العربي والانجليزي من دون اعتناء بناحية التأثر والتبادل (فهو لم يستخدم مصطلح الأدب المقارن ولم يكشف عن معرفة به على الرغم من سبقه في مجال الدراسة التقابلية أي غير القائمة على التأثر والتأثير).

- كتاب "منهل الرواد في علم الانتقاد" للأديب الحلبي (قسطاكي الحمصي) سنة 1935، وتضمن بحثا مطولا عن " الموازنة بين الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران" .

-دراسات في مجلة "الرسالة" لعبد الوهاب غرام_في الثلاثينيات_حول الأدب العربي والأدب الفارسي.

-كتاب "روابط الفكر بين العرب والفرنجة" لإلياس أبو شبكة_في الأربيعينيات_طبعته الثانية كانت في بيروت سنة 1945.

وبالتدريج انتعش هذا النوع من الدراسات وتعددت وجهاته، وقد ظهر مصطلح الأدب المقارن في مجلة "الرسالة" على يد الكاتب الشامي (خليل هنداوي) في سلسلة مقالات تلقي ضوءا جديدا على اشتغال العرب بالأدب المقارن في كتاب "تلخيص كتاب أرسطو في الشعر" لفيلسوف العرب ابن رشد سنة 1936، وتكرر في أعداد ثلاثة تالية، والجدير بالذكر أن ضمن هذه المقالات نجد مقالة تعد الأولى من نوعها في الأدب العربي وهي تتضمن مقدمة نظرية عن الأدب المقارن ومنهجه ومزاياه.

ثم ظهرت سلسلة من الكتب الجامعية تعاقبت بمعدل كتاب كل سنتين تقريبا، وصدر أولها سنة 1948 في القاهرة بعنوان: "من الأدب المقارن" لنجيب العقيقي، تضمن حديثا عن الأدب العام والنقد النظري الذي لا صلة مباشرة له بالعنوان .

وفي سنة 1949 ظهر كتاب "في الأدب المقارن" لعبد الرزاق حميدة كما ظهر سنة 1951 كتاب مقارني لإبراهيم سلامة .

على أن أهم تطور تأليفي في الموضوع ظهر في كتاب: "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال سنة 1953، الذي يعتبر أول محاولة عربية ذات وزن أكاديمي في منهجية الأدب المقارن، رغم أنه يظهر شديد التمسك بمبادئ المدرسة الفرنسية التقليدية .

وبعد الخمسينيات تطور تدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية بخطوات غير حثيثة، وألفت كتب جامعية متفرقة اعتمدت كثيرا على كتاب محمد غنيمي هلال .

ولكن بدأت تبرز في الثمانينات اتجاهات جديدة على يد الجيل التالي مؤذنة بحلول مرحلة نهوض جديدة أكثر وعيا للتطورات العالمية .

ولم تتأخر الجامعة الجزائرية في احتضان هذا الحقل المعرفي تدريسا وتنظيرا وتطبيقا وترجمة بفضل باحثين بارزين منهم: جمال الدين بن الشيخ، أبو العيد دودو، عبد القادر بوزيدة، عبد المجيد حنون، حفناوي بعلي ...

ومن أهم جهود هؤلاء نشير إلى:

-احتضنت جامعة عنابة ملتقيين دوليين عامي 1983 و1984م على التوالي حول "قضايا الأدب المقارن"، وكان من أهم توصياتهما: إنشاء "الرابطة العربية للأدب المقارن" مقرها جامعة عنابة، أمينها العام الباحث الجزائري الدكتور عبد المجيد حنون .

-قام مخبر الأدب العام و المقارن بجامعة عنابة بترجمة كتاب "ما الأدب المقارن؟" لبيير برونيل من الفرنسية إلى العربية .

-قدم الباحث المقارن الدكتور حفناوي بعلي للمكتبة العربية دراسات للأدب المقارن أهمها: "تأثير ت.س إليوت في الشعر العربي المعاصر" جبرا إبراهيم جبرا أنموذجا" وغيرها ....

ملاحظات :

1–إن الأدب المقارن ليس نوعا مميزا من الانتاجات الأدبية مثله مثل (الأدب العربي) أو (الانجيلزي) أو (الأمريكي) ...،ولا هو نتاج إبداعي يقف مقابلا للقصة القصيرة أو المسرحية أو الرواية ....

وإنما هو أداة منهجية في خدمة الأدب بصفة عامة، وذلك من أجل الكشف عن مواطن تأثير وتأثر هذا الأدب أو ذلك بعضه ببعض .

2–تبعا للملاحظة (**1**) فإن البناء على اسم المفعول هو الأصل أي مقارن وتترجم إلى اللغة الفرنسية La littérature comparee.

3–ارتبطت المدرسة الفرنسية بالمنظور التاريخي للأدب إذ يرى دارسو الأدب الأعمال الأدبية في صورة أعمال منتظمة في نسق تاريخي، ويطبقون مقولات التاريخ وفلسفته ومناهجه في دراستها .

وتبدأ هذه المقولات بمقولة (النسبية الزمانية والمكانية) أي أن لكل زمان ومكان تقاليد وأذواق ومعايير واعراف ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية تحكم هذا المكان والزمان، وكل هذه المعايير والتقاليد.. تتغير بتغير الزمان واختلاف المكان، وبالتالي لابد من الرجوع بالعمل الأدبي حين دراسته إلى فضائه الزماني والمكاني ونفسره بأعين معاصريه فلا نحكم عليه بأعين عصرنا الحاضر.

وهناك مقولات التاريخ الأخرى التي تطبقها المدرسة الفرنسية مثل: السببية، والنشوء والتطور، اليقينية....

4–تمسكت المدرسة الفرنسية بالمنهجية التاريخية الصارمة، وحاولت تمييز منهجية الأدب المقارن ومنطقته من سائر الدراسات الأدبية واقتربت من العلمية والحياد....

5–إن تناول الأدب المقارن بمفهوم المفاضلة التي تؤدي إلى الاستعلاء والتطاول في عمل إبداعي وآخر يفضي بالضرورة إلى المفاضلة والتحيز إلى منهج مدرسي معين يحقق مثل

هذه النتائج، في حين أن التوفيق بين الوسائل هو انتصار للدرس المقارن، الذي يجب أن يرتفع عن الخوض في مثل هذه المباحث ومحاولة تجنبها .

6-المدرسة الأمريكية تدرس الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية، وهكذا ينبني موقف الأمريكيين في بناء المقارنة على أساس الاهتمام بدراسته في صلاته (الأدب) التي تتعدى حدوده القومية، وهذه الأخيرة هي التي تحدد نوع الأدب لا اللغة أي الحدود القومية التي تحدد نوعية الأدب، فالشيء الذي يفصل بين الأدب الأمريكي والانجليزي والكندي هو الحدود القومية، وهو ما جعل المدرسة الأمريكية تلاحق العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة فيما بينها وبين أنماط الفكر البشري معتمدة في ذلك على المزاوجة بين الأدبي والفني، وهي مزاوجة كثيرا ما تفترض تقاربا بين الاختصاصات والثقافات...

7-إن ما يجب الاعتراف به هو أن تطور الدراسات المقارنة في أمريكا أو غيرها لو يكن ليصبح ممكنا دون الجهود المبذولة من المدرسة الفرنسية، التي كان لفكرة الجيل دورها في بلورة مفهومها وتحديد إستراتيجيتها وتطوير أدواتها ومناهجها .

فكل جيل من أجيالها يمثلها مجموعة من الباحثين الذين يتعاقبون على كراسي الدراسات المقارنة وعلى إدارة مجلة الأدب المقارن يحذوهم تحقيق هدف المدرسة الذي تبلور عبر تأليف الكتب التعليمية الجامعية...

(الجيل الأول: مرحلة التأسيس، الجيل الثاني :مرحلة التدريس، الجيل الثالث: مرحلة البحث).

8- بين الأدب المقارن والموازنات:

أ-الموازنات:

وهي القيام بموازنة بين كتاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلة تاريخية، ويمكن أن ندرج في هذا المجال مثالا وهو ما عقده الكاتب الفرنسي الكبير ستوندال Stendhal (1783_1842) من مقارنة وموازنة بين راسين (الفرنسي) وشكسبير (الانجليزي) حيث قابل

الأصول التقليدية في مسرحيات راسين يوجون الإبداع في مسرحيات شكسبير، واتخذ هذه المقابلة وسيلة للرفع من شأن وليام شكسبير وأصالة فنه كما اتخذها ذريعة لرفض قواعد الكلاسيكية الجامدة والانتصار لقواعد الرومانسية المنطلقة .

ومما لاشك فيه أن مثل هذه الدراسة لا تخل من فائدة تتمثل في فهم قواعد الرومانسية من خلال هذه المقابلة، وفي الوقت نفسه يمكن فهم صاحب الدراسة (ستوندال) وماله من ثقافة، غير أن مثل هذه الموازنات ليست من الأدب المقارن منهجا وموضوعا إذ ليس بين الأدبيين صلة تاريخية .

والشيء نفسه يمكن قوله لو عقدنا موازنة بين الشاعر الانجليزي ملتن Miltonوأبي العلاء المعري لأن كليهما كان أعمى وأنتج تحت تأثير هذه العاهة ولهما نفس الموقف المتطرف من الدين والمعروف أن الشاعرين لم يعرف أحدهما الآخر ولم يتأثر به، فالتشابه والظروف الاجتماعية والاقتصادية.... ليست لها قيمة تاريخية وليست كافية لعقد مقارنات ولا يصح عقد مقارنة بين نصوص لمجرد تشابه وتقارب دون أن يكون بينهما صلة ما نتج عنها توالد أو تفاعل من أي نوع كان. غير ان مثل هذه المقارنات قد تكون مفيدة لتقوية الملاحظة وللإحاطة بمعلومات كثيرة ولكن ليست لها قيمة تاريخية حتى تصنف في باب الأدب المقارن، هذا الأخير الذي يهدف للوصول إلى شرح الحقائق عن طريق تاريخي وكيفية انتقالها من لغة إلى أخرى وصلة توالدها بعضها من بعض والصفات العامة التي احتفظت بها حين انتقلت إلى أدب آخر ثم الألوان الخاصة التي فقدتها أو اكتسبتها لهذا الانتقال.

ب- الموازنات داخل الأدب القومي الواحد:

إذا اعتبرنا أن ما يعقد من موازنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية من الأدب المقارن، فإنه بالضرورة لا يمكن اعتبار ما يساق من موازنات داخل الأدب القومي الواحد في الأدب المقارن أيضا سواء أكانت هناك صلات تاريخية بين النصوص المقارنة أم لم توجد هذه الصلات فإذا وازنا على سبيل المثال بين احمد شوقي وحافظ إبراهيم أو أبي تمام

والبحتري في الأدب العربي فإن مثل هذه الموازنة لا يمكننا إدخالها ضمن مباحث الأدب المقارن، وكذا الموازنة بين كورناي وراسين في الأدب الفرنسي، فإن مثل هذه الموازنات لا شك أن مؤرخ الأدب المقارن يتركها إلى مؤرخ الأدب القومي لأن مثل هذه الموازنات بالرغم من أهميتها وقيمتها التاريخية فإنها لا تتعدى نطاق الأدب القومي الواحد.

في حين أن ميدان الأدب المقارن دولي يربط بين أدبين مختلفين أو أكثر، ومهما أولينا الأهمية القصوى لمثل هذه الموازنات الداخلية لأدب واحد فإنها تظل أقل خصبا وأضيق مجلا من الدراسات المقارنة وكثيرا ما تسير على خط واحد في مساحة من المعلومات الضيقة، كتلك الموازنات التي نقوم بها بين بديع الزمان الهمداني والحريري، وكيف تأثر هذا الأخير بالأول وعمل على تطوير المقامة شكلا.

لكن أين هذا مما لو درسنا المقامات ونشأتها وتطورها في الأدب العربي، ثم انتقالها إلى الأدب الفارسي وحظها منه أو نقوم بدراسة موضوع مجنون ليلى في الادب العربي، وكيف انتقل إلى ميدان التصوف والرمز في الأدب الفارسي، أو دراسة تأثير الأدب اليوناني القديم أو اللاتيني في أدب كتاب وشعراء عصر النهضة انطلاقا من نظريتهم في محاكاة القدماء.